تقديم

على طائرة مصر للطيران إلى الولايات المتحدة الأمريكية فى شهر مايو ٢٠٠٨، تقدم إلىّ بالسلام والابتسام فى وجهى ... ولعله لاحظ أن سنوات العمر التى مرت غيرت من الملامح المختزنة فى العقل الباطن، فبادرنى بالقول: عادل المعلم! وكأنما ضغطت هاتان الكلمتان مفتاحين من مفاتيح الكمبيوتر، فإذا بشاشة الذاكرة تنفرج فجأة على مخزون ضخم من الذكريات والمواقف، تمتد وتتراكم لتغطى أكثر من أربعين عامًا...

كانت بدايات معرفتنا فى أواخر الستينيات من القرن الماضى، عندما كان عادل فى آخر سنواته الدراسية فى قسم الهندسة الميكانيكية بكلية الهندسة ـ جامعة القاهرة، وكنت فى أول سنوات عملى مدرسًا بالجامعة إثر حصولى على درجة الدكتوراه من الكلية الجامعية فى لندن بالمملكة المتحدة.

كان عادل مع أخيه الأكبر إبراهيم هما الجيل الثانى الذى يعده والدهما رائد النشر والثقافة الحديثة فى مصر الأستاذ محمد المعلم. وكان تعارفى مع العائلة فى ذلك الوقت سريعًا بفضل شخصية محمد المعلم ـ رحمه الله ـ والتى كانت تفيض بطيبة زائدة وتواضع جم وود غامر، لا يبخل به على أحد حتى ولو كان يقابله للمرة الأولى...!

كان من الطبيعى أن نتقارب ونتآلف وقد جمعتنا الهموم المشتركة والإحباط القاسى بعد هزيمة ١٩٦٧، وسعينا الدءوب نحو ما يمكننا عمله، كلٌّ فى مجاله. كأنما نريد أن نكفر عن نصيبنا من التقصير كأفراد فى ذلك الجيل الذى داهمته تلك الهزيمة الشنعاء!

كنت فى ذلك الوقت قد قضيت وقتًا فى ترجمة كتاب عن «الاهتزازات الميكانيكية»، كتبه أستاذى الراحل «بيشوب» ليشرح دقائق هذه المادة التى تعد من المواد الثقيلة ـ وربما أثقلها لدى طلبة الجامعة ـ لتلاميذ فى المدارس الابتدائية، لا يزيد عمرهم عن اثنى عشر عامًا.

obeikandl.com

وقد علمت من «بيشوب» طيب الله ثراه أنه كتب هذا الكتاب منطلقًا من عقيدة راسخة، بأن أستاذ الجامعة الحق لا بد أن يكون كالمنارة، ترسل ومضاتها البراقة فى كل اتجاه حولها مخترقة ظلمات البحر الدامسة، وأن ومضاته تلك لا بد أن تستمر طول الوقت تهدى القوارب الصغيرة كما تهدى السفن الكبيرة، رغم أن أحدًا لا يعلم مَنْ سوف يصل على هديها، ولا متى سوف يصل إلى شاطئ نهاية الإبحار وبداية الانطلاق فى أرض الله الواسعة!

ومن نفس المنطلق، رأيت أن أبدأ حياتى الجامعية فى مصر بترجمة كتابه إلى العربية، لعله يهدى قوارب الصغار من شبابنا فى إبحارهم نحو المستقبل العلمى الذى ينشدونه.

أدى هذا الكتاب إلى تقاربى من محمد المعلم، وكان فى ذلك الوقت صاحب دار القلم، وقال لى: إننى أذكره ببدايات حياته عندما تخرج فى كلية العلوم ـ جامعة القاهرة سنة ١٩٤٢، وكان شاغله الأول هو إتاحة المزيد من العلم للمزيد من المصريين وقراء العربية، وكانت الكتب الثلاثة التى بدأ بنشرها فى مجالات الذرة للدكتور مشرفة، والفلك للدكتور سماحة، والرياضيات للدكتور منتصر.

كانت تلك هى أولى خطواته فى عالم النشر، الذى تطور إلى أن أسس دار القلم سنة ١٩٥٩، والتى آلت للدولة سنة ١٩٦٦، فأسس بعدها دار الشروق سنة ١٩٦٨.

توالت هذه الصور فى ذاكرتى سريعًا، كما توالت الصورة الأحدث... افتتاح مكتبة لدار الشروق فى لندن، أثناء عملى مستشارًا ثقافيًّا فيها سنة ١٩٨١، لنقل الثقافة العربية إلى العاصمة البريطانية،... وسعيه لإصدار دائرة معارف مصرية على غرار دائرة المعارف البريطانية.

انتقل عادل ليجلس بجوارى فى الطائرة، وبينما كان يزيح بعض الأوراق من الكرسى المجاور لى قال: ما هذا؟ وأجبته هذه صفحات من كتاب ربما يظهر قريبًا، فسأل: ما موضوعه؟ قلت له: الفيزياء وميكانيكا الكم.. وكانت إجابته السريعة: ألا زلت تعيش فى عالمك المثالى؟! هل تعتقد أنه لا يزال هناك أحد يهتم بأن يقرأ ـ كمعلومات عامة ـ وإذا كان هناك من يقرأ، فهل سيقرأ كتابًا عن الفيزياء وميكانيكا الكم؟ إن الشباب الآن فى مصر والعالم العربى قد تغير، ولم تعد المعارف العامة، ولا الشئون العامة، ولا حتى مجرد القراءة من شواغله.

فقلت: معك الحق، وأنا أتألم كلما اكتشفت مدى انصراف الشباب عن القراءة ـ حتى فى تخصصاتهم ـ وضآلة معلوماتهم العامة، ودفاع بعضهم عن ذلك بأن الكمبيوتر والنت كفيلان بتوفير ما يريدون عندما يحتاجون!

فأجابنى: نحن فى طريقنا من مصر إلى بلد الكمبيوتر والنت... وقد تندهش عندما تعلم أن ما قرأه الأمريكيون من الكتب فى عام ٢٠٠٤ كان قيمته ٢٨,٦ مليار دولار(*)!... وأن فى نيويورك وحدها، أكثر من عشرين فرعًا من سلسلة مكتبات بارنز آند نوبل... تتراوح مساحة الفرع منها من أربعمائة إلى ألف متر، أى أكبر من أى مكتبة فى مصر... بأكملها... ولقد زرت كثيرًا منها... وفى كل مرة أجد المكتبة تشغى بالقراء كأنها خلية نحل... من التاسعة صباحًا حتى التاسعة مساءً، سبعة أيام فى الأسبوع.

فقلت: ربما نوعية الكتب المعروضة فى مصر، أو نوعية الثقافة المعروضة بصفة عامة، هى السبب، أو على الأقل أحد الأسباب.

فأجاب.. نعم أوافقك ... فهى سبب وهى نتيجة أيضًا ... فهى بمثابة المشكلة والعلاج ... أو الداء والدواء... فمن ناحية، هى إفراز عقول المجتمع ... وهى فى نفس الوقت العامل المهم فى التأثير عليه ... فكأنما فقد المجتمع وجهته وقوته المحركة ... فى سيل من الأعمال والأفكار التى تعصف به من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين ... وبالعكس، فى جو من الفراغ والخواء الفكرى ... مع فقدان الثقة بالنفس، واهتزاز القناعة بالحاضر ... وقلة أو انعدام الأمل فى المستقبل ... وضياع الانتماء للوطن......

فقلت: صدقت، ولكن لا يزال لدى قدر من التفاؤل... يدفعنى إلى العمل الإيجابى للإسهام ولو بأدنى قدر فى عملية الإصلاح التى لا تتوقف فى الشعوب الحية... مهما كانت صعبة أو بطيئة... ومن هنا جاء انشغالى بكتابى هذا الذى أرجو أن يشرح ميكانيكا الكم فى أبسط لغة لفائدة القارئ غير المتخصص...

ثم دعانى عادل لزيارته فى مكتبه فى مصر الجديدة بعد العودة...

وفى مكتبه بمصر الجديدة، أخبرنى أنه بصدد نشر ترجمة كتاب عن طلعت حرب

(*) كتاب بريتانيكا (٢٠٠٦) صفحة ٢٤٥.

يشمل جوانب عديدة من حياته لم تظهر حتى الآن، ولا يعلمها كثير من المصريين، وسألنى إذا كان لدى اهتمام ووقت لمراجعة الكتاب وتقديمه للقراء، وأجبته على الفور بأننى لا يمكن أن أرفض طلبًا كهذا، فهو يتمشى مع ما أريده من إثراء المكتبة العربية بالدراسات الجادة.

أخذت منه الكتاب، وتركته وأنا أفكر طوال الطريق إلى منزلى، وأتأمل، فى تلك المصادفة التى قادت كتابًا عن طلعت حرب إلى مكتبة الشروق الدولية، ثم إلىّ ليرتبط اسمى به، لقد كان طلعت حرب الرائد الأول فى الدفاع عن الهوية المصرية والنهوض بها فى مواجهة غير المصريين من أصحاب الأموال والبنوك الأجنبية، والذين تعاونوا مع بعض كبار ملاك الأراضى لنزف ثروة مصر.

وعلى نفس الطريق، سار محمد المعلم الذى أصر على النهوض بقراء العربية، ثم كافح لنقل العربية إلى المجتمع البريطانى فى لندن سنة ١٩٨١، ليتسلم الراية بعده ابناه إبراهيم وعادل، ويستمران فى نفس الخط الوطنى لا يحيدان عنه، ولا يقتصر هذا النشاط الجدى على مصر وحدها، وإنما ينتقل إلى دول جنوب شرق آسيا.. إنها رسالة تستمر وتقوى؛ لأنها تنفع الناس فتبقى فى الأرض، ولا تذهب جفاء...

أما عن كتاب طلعت حرب، فقد جسد أمامى المثل العربى الشائع: **ما أشبه الليلة بالبارحة!...**

سيطر ذلك القول المأثور على تفكيرى طوال مراجعتى لهذه الدراسة المتميزة التى تتناول جهود طلعت حرب وكفاحه، فى فترة ربما كانت من أخصب فترات تاريخنا الحديث سياسيًّا واقتصاديًّا وثقافيًّا واجتماعيًّا..

ورغم أهمية تلك الفترة فى تكوين الدولة المصرية حكومة وشعبًا، إلى أن وصلت إلى ما هى عليه الآن، فإن القارئ يتعجب أن تكون الجدليات الداخلية والضغوط الخارجية فيما يتعلق بمسيرة التنمية المصرية لا تزال تقريبًا كما هى، حتى ليبدو لمن يتأمل فى أوضاعنا قليلاً أننا لم نستوعب دروس الماضى كما يجب، ولم نستخلص منها ما نواجه به متطلبات الحاضر، فضلاً عن ضمانات المستقبل...

وأنا لا أزال أؤمن إيمانًا راسخًا بأن مستقبل هذه الأمة مرتبط بالصناعة القومية الوطنية، وأنه برغم كل ما يقال، فإن الصناعة كأنشطة إنتاجية فى شتى المجالات لم تحظ بالأولوية التى تستحقها فى دائرة الاهتمام الحكومى، بل ربما تراجعت أولوياتها عما كانت عليه لتفسح المجال لأولويات أخرى ترتبط بمتغيرات عالمية خارجية أكبر مما ترتبط باحتياجات تنموية داخلية.

ولأن توفير التمويل اللازم لإنشاء صناعة وطنية لا يزال من أكبر العقبات التى تواجهها الصناعة فى مصر، ولا يزال يخضع لاعتبارات ونقاشات شتى، فإن الارتباط بين الصناعة الإنتاجية والبنوك، أو الصناعة المصرفية، لا يزال هو التحدى الأكبر فى عملية التنمية والتقدم.

ومن هنا تأتى أهمية تلك الدراسة التى تتناول فترة شديدة الخصوبة من التزاوج بين الصناعة والبنوك، ممثلة فى إنشاء بنك مصر لتمويل الشركات الصناعية والإنتاجية أساسًا، وجهود مؤسسه الوطنى العظيم محمد طلعت حرب فى خوض معاركه مع خصومه ومعارضيه، وتعرض بالتفصيل لكل طموحاته وآماله وانتصاراته وانكساراته، والقيود التى فرضت عليه من الداخل والخارج أثناء مسيرته الكفاحية العظيمة.

وتتميز هذه الدراسة بالعمق وبالاتساع معًا، وسوف يلاحظ القارئ من مطالعته السريعة لها مدى التعمق الأكاديمى الذى ألزم الباحث به نفسه، والذى يتضح من النظرة الأولى لقائمة مراجعه، والتى تبدأ من ملفات تعداد مصر سنة ١٨١٢، مرورًا بملفات الأطيان الزراعية من سنة ١٨٦٣ إلى سنة ١٩٤١، إلى أن تغطى عشرين صحيفة ودورية من الأهالى سنة ١٩١٤، إلى «البلاغ المصرى» سنة ١٩٣٩، وأكثر من أربعين كتابًا عربيًّا فى مصر حتى ١٩٥٧، وأكثر من ٦٠ كتابًا أجنبيًّا فى أوروبا، إضافة إلى وثائق الحكومة البريطانية المنشورة منذ عام ١٩٠٠.

ولأن تاريخ نشر هذه الدراسة فى أمريكا كان سنة ١٩٨١، فيجب التنويه بأن كل هذا الجهد فى تتبع المراجع كان فى وقت لا يستطيع الباحث فيه أن يشير إلى بحث فى أطروحته إلا بعد أن يحصل عليه بالفعل ويقرأه، لا أن يقرأ عنه فى الإنترنت ويضيفه إلى مراجعه، كما يشيع بكثرة فى هذه الأيام! ومن هذه الناحية، فإن الدراسة تعطى نموذجًا للالتزام

الأكاديمى كدنا نفتقده بين باحثينا فى مصر لعوامل كثيرة نتحدث عنها باستخفاف ولا ندرك خطورة أثرها علينا مستقبلا!

وربما يتساءل القارئ: ولماذا كل هذا العناء فى التعمق التاريخى والتفصيل المرجعى؟ والإجابة ببساطة: أن الباحث كان يريد التوصل إلى جذور الخلفية التى صنعت طلعت حرب وشكلته، فكان عليه أن يتناول نشأته من عائلة فقيرة لا تملك فدانًا كاملاً من أراضى الشرقية، ثم انتقاله لقصر الشوق فى القاهرة، ودراسته للحقوق التى ربما وجهت اهتمامه إلى فرنسا أكثر من بريطانيا وتركيا واليابان، وإحساسه بالظلم الفادح الذى كان يتعرض له ملاك الأراضى البسيطة من البنوك الأجنبية والمرابين الذين وصلوا بنسبة الفائدة على ما يقرضونه لملاك الأراضى إلى ٣٠٪، حتى كان الملاك يضطرون لبيع أراضيهم لعجزهم عن سداد ديونهم، فتكونت رؤيته المستقبلية وقناعته الوطنية عن ضرورة إنشاء بنك مصرى حارب فى سبيله أكثر من تسع سنوات حتى تأسس سنة ١٩٢٠، ثم رؤيته التنموية الأخرى التى تمثلت فى إنشاء أكثر من عشرين شركة، كانت أولاها شركة المحلة للغزل والنسيج، التى كانت عاملاً مهمًّا فى تحرير الاقتصاد المصرى الذى كان يقوم على زراعة محصول واحد هو القطن الذى يصدر إلى إنجلترا واليابان، فقامت شركة المحلة بالغزل والنسيج، وحررت البلاد من قبضة الدول الخارجية عليها عن طريق فرض أسعار تحكمية لتصدير القطن المصرى إليها.

ولم يكن الطريق سهلاً أمام طلعت حرب؛ فقد كان يواجه تحالفات قوية بين بعض كبار الملاك المصريين وبين الجاليات الأجنبية المقيمة فى مصر وأصحاب التطلعات السياسية، الذين لا يمانعون فى السير مع السياسات الأجنبية التى لا تتخلى عن عاداتها فى تقديم أقراصها مدهونة بالزبد والعسل حتى لا تظهر آثارها إلا بعد أن يبتلعها التابعون من ذوى الخبرة القليلة أو الرؤى القصيرة، وربما السذاجة الكبيرة.

حارب طلعت حرب أكثر من معركة على أكثر من جبهة، وكان عليه أن يهاجم، وأن يدافع، وأن يهادن، وأن يناور، وأن يساير، ولكن رؤيته الإستراتيجية كانت دائمًا واضحة قوية أمامه، يتبعها كما يتبع البحار بوصلته مهما كانت الرياح عاتية والأمواج عالية، وكان يسعى دائمًا إلى تنمية وطنية مصرية خالصة تجمع معها جيران مصر من الدول العربية،

obeikandl.com

ليحقق بها تكاملاً يواجه به الضغوط الأجنبية التى تظهر سافرة بعض الوقت ومغطاة بشعارات وادعاءات براقة مصطنعة أكثر الوقت.

إن هذا الكتاب يأتى فى وقته ليملأ فراغًا ملحوظًا عن طلعت حرب فى بلد طلعت حرب وبلغة طلعت حرب، وليقدم للمهتمين بتنمية هذا البلد ونهضته تجربة فريدة لا تتناول وقتها فحسب، بل ربما تتناول ـ ويا للدهشة والحسرة! ـ ما نمر به الآن بعد قرابة مائة عام من حدوثها!

د. إبراهيم فوزى

الأستاذ بكلية الهندسة ـ جامعة القاهرة

ووزير الصناعة الأسبق

نوفمبر ٢٠٠٨

obeikandl.com